

# الحوار مع الذات، والحوار مع الآخر

- المبحث الأول، الحوار مع الذات.
  - أولاً: محاسبة النفس.
  - ثانياً، الحوار مع الذات بالتدبير والتفكير والتعقل والتأمل.
- المبحث الثاني، الحوار مع الآخر.
  - أولاً، المناظرة..
  - ثانياً، الحوار مع أهل الكتاب..



## الحوار مع الذات، والحوار مع الآخر

### المبحث الأول الحوار مع الذات

يكون الحوار مع النفس (الذات) فاعلاً لتصحيح مسارها، وإقامة اعوجاجها، وذلك بمراجعة النفس أو بالتأمل والتدبر والتذكر الذي يعيد الإنسان إلى استجماع خواطره حول مصادر الإعجاز الكوني، وهذا ما سنتناوله فيما يلي:

#### أولاً: محاسبة النفس

من لزوميات الحوار مع النفس محاسبتها، ومناقشتها، ومداومة سؤالها:

روي الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»<sup>(١)</sup>.

وقال الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجئه الشيء، ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١ / ١٤٩).

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبداً قال لنفسه: ألسنت صاحبة كذا، ألسنت صاحبة كذا، ثم ذمها، ثم خطمها، ثم أزمها كتاب الله عزَّوجلَّ فكان لها قائداً».

فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه، والتصديق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [أل عمران: ٣٠].

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده:

أما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبداً وقف عندهم، فإن أحداً لا يعمل حتى بهم، فإن كان لله عزَّوجلَّ مضى، وإن كان لغير الله أمسك».

وشرح بعضهم هذا فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولاً ونظر هل ذلك العمل مقدور عليه، أو غير مقدور عليه ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدوراً عليه لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً عليه وقف وقفة أخرى ونظر، هل فعله خير من تركه؟ أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة هل الباعث عليه إرادة وجه الله عزَّوجلَّ وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟.

فإن كان الثاني لم يقدم وإن أفضى به مطلوبه؛ لثلاث اعتبارات النفس الشرك ويخفف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يتقل عليها العمل حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه وله أعوانه يساعدهونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذلك أم لا؟

فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صارت له شوكة وأنصار، وإن وجده معاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله ولا يفوت

النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

وأما النوع الثاني: فمحاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول ﷺ وشهود مشهد الإحسان وشهود منة الله، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه هل وفى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا عاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وآخر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك وهذه حال أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواجهة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض فإن تذكر نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشته رجلاه أو بطشت يده أو سمعت أذناه ماذا أرادت بهذا؟ ولم فعلته وعلى أي وجه فعلته قال الله تعالى: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَنْهُمَ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجرات: ٩٢-٩٣].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَتِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٦-٧].

فإذا سُئِلَ الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

قال محمد بن جرير رحمه الله: يقول تعالى ثم ليسألنكم الله عزَّجَلَّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟

وقال قتادة: إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

والنعيم المستول عنه نوعان: نوع أخذ منحة وصرف في حقه فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير منحة وصرف في غير حقه فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسئولاً وحاسباً على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه ما قال تعالى:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يُناقش الحساب.

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكَتُِبْ عَلَيْكُمُ النَّفْسُ مَآ قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال، أمِن الصالحات التي تنجيهِ، أم من السيئات التي توبقه؟

قال قتادة: ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلكم كغد.

والمقصود: أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفسادها بإهمالها والاسترسال معها.

ومن فوائد محاسبة النفس: الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها، مقتها في ذات الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً».

قال محمد بن واسع: لو كان للذنوب رائحة ما قدر أحد أن يجلس إلى.

قال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهاها في سائر أوقاته كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكتها.

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فقال: يا بني، هؤلاء في الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك، فجعلت نفسها معنا».

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: «أن رجلاً من بني إسرائيل تعبد ستين سنة في طلب حاجة فلم يظفر بها، فقال في نفسه والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك، فأق في منامه فقيل له أرأيت ازدراءك نفسك تلك الساعة فإنه خير من عبادتكم تلك السنين» فالنفس داعية إلى المهالك معينة للأعداء طامحة إلى كل قبيح متبعة لكل سوء فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل.

ومن فوائد محاسبة النفس أيضًا: أن يعرف العبد بذلك حق الله تعالى ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًا.

فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العباد فإن ذلك يورثه مقت نفسه والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه والياس من نفسه وأن النجاة لا تحصل إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يُطاع ولا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه علم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي آياسهم من أنفسهم، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بصدد ذلك ينظرون في حقهم على الله ولا ينظرون في حق الله عليهم، ومن هنا انقطعوا عن الله وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعيم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولاً، ثم نظره هل قام به كما ينبغي، وأفضل الفكر في ذلك؛ فإنه يسير القلب إلى الله ويطرحه بين يديه ذليلاً خاضعاً منكسراً كسراً فيه جبره ومفتقراً فقراً فيه غناه وذليلاً ذلاً فيه عزه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاتته هذا فالذي فاتته من البر أفضل من الذي ناله.

### ثانياً: الحوار مع الذات بالتدبير والتذكر والتعقل والتأمل؛

القارئ لآيات الذكر الحكيم يجد حثاً على الاستزادة من العلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وعلى التأمل والبحث والنظر في ملكوت الله: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وعلى التفكير والتدبير: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَنْفَكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضِرُ بِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وحت على التذكر والتبصر: ﴿وَيَسِّرْ لِنَّاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ قُلُوبًا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

كما يجد دعوة إلى التعقل واستنارة البصيرة: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿وَلَهُ أُخْتَلِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠]. ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].<sup>(١)</sup>

ولا يخفى على القارئ أن الدعوات القرآنية سابقة الذكر لن يقوم بواجبها وحققها إلا أولو الألباب (الذين ورد ذكرهم في ست عشرة آية قرآنية) الذين يتأملون في الكون، ويلتمسون العبرة، ويحسون التدبر في آيات الله، ويقودهم هذا إلى أداء العبادة الصحيحة، والقنوت لله تعالى، والحذر منه، ورجاء رحمته.<sup>(٢)</sup>

وهذه المعاني المتقدمة نقرأها عندما نطالع بعض هذه المواضع في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ﴿وَأَنْتُمْ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. ﴿لِيَذَّبَرُوا مِنِّي﴾ [ص: ٢٩]. ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ عَائِةِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وتأكيذاً لدعوة أولي الألباب إلى التأمل والتعرف إلى جلال الله وعظمته، وبديع صنعه ومحكم آياته، ورائع بيانه، فإننا نجد أن القرآن الكريم لا يدع موطئاً في الكون دون أن يطوف بالإنسان خلاله، ويستثير فيه النظرة التأملية، ويلفت أصحاب العقول الراجحة

(١) الآيات التي ورد فيها ذكر (العقل) في القرآن الكريم المأخوذة من العقل (عقل) هي تسع وأربعون آية؛ تدعو جميعها إلى إعمال العقل في جنبات الكون، ولذا نلاحظ ارتباطها بكلمة (آية) و(آيات) في ثلاث عشرة آية في مثل (فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) [الجنائية: ٥]. وهذا أمر له دلالة: فأيات الله في كونه وفي قرآنه تستنفر العقل الواعي لكي يدرك عظمة الله وإعجازه وإبداعه في هذه الآية.

(٢) أحمد عبده عوض: الإسلام والبعث الحضاري، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٤٥.

إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون ﴿ سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وإعادة النظر في ظواهر الكون والبحث عن حكمها وتصاريحها يظهر لنا حقائق نورانية، ويفتح عين البصيرة، ويزداد من الله هداية و يقيناً، وسبيل ذلك بإعمال آيات الإدراك. واستخدام الحواس استخداماً وظيفياً صحيحاً ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]. ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٤].

وسنأخذ الآن في تناول آيات التدبر لأولى الأبواب في القرآن العظيم التي تتحدث عن أولى الأبواب وأصحاب العقول:

١- في سورة البقرة ثلاث آيات مختلفة السياق والموضوع هي:

﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿ وَتَكَوَّذُوا فِيهَا حَيْرَ الزَّادِ النُّقْوَى وَاتَّقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وللحكمة مواضعها الحميدة سواء في تبليغ الدعوة أم في إنفاق المال، أم في أي شأن آخر.

٢- وفي سورة آل عمران آيتان: الأولى تتحدث عن عصمة الفكر من البحث فيما وراء المادة، لأن هذا النوع من البحث يقوم على التخمين والتوهم.

والأخرى تطلق العنان للفكر كي يبيح ويستنتج في المادة وأسرارها وقوانينها؛ وقيام الله عليها، وأحكامه لوجودها.

قال تعالى في الموضوع الأول:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

أما الحث على التأمل في الكون فهو في الموضع الآخر من السورة قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [ال عمران: ١٩٠-١٩١].

٣- وفي الموضع السادس نجد تمييزًا لأصناف الناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠].

٤- وفي الموضع السابع بيان بأهمية القصة القرآنية:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

٥- وفي سورة الرعد حديث مفصل عن الحلال النبيلة التي يستجمعها أولو الألباب، وتضبط مسالكهم كلها قال تعالى في الموضع الثامن من ذكر أولي الألباب:

﴿أَفَنَنْبَعُثُهُمْ إِنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْمُنْعَىٰ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلَآءَ الْأَلْبَابِ ﴿١١١﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ﴾ [الرعد: ١١٩-١٢٠].

٦- وفي سورة إبراهيم (الموضع التاسع) نجد وصفا للصراع بين الحق والباطل والآثار القرابية والبعيدة لهذا الصراع، سواء في دنيا الناس أو في اللقاء الأخير مع رب العالمين.

وقد ختمت السورة بهذه الآية: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ لِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢].

٧- سورة (ص) نجد الموضعين العاشر والحادي عشر لأولي الألباب. في الموضع الأول

يقول تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتِّقَاءُ اللَّهِ وَمَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَطَنَ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

القرآن غزير المعاني، مفعم بالحقائق، بيد أن الطريق لاستبانة هذا كله إمعان النظر،

وتعميق البصر وطرق الأبواب دون سامة، فإن حسن الفهم عطاء أعلى قبل أن يكون كد الذهن وطول التلاوة.

أما الموضوع الآخر في سورة (ص)، فلقد حكى القرآن قصة أيوب الذي ألت عليه الأوجاع، فانحصر داخل عبوديته يتألم ويؤمل، يتحمل ويرجو، حتى تأذن الله بالفرج، وجاءت العافية المنظورة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ، وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٣-٤٤].

٨- وفي سورة الزمر نجد المواضع (١٢-١٣-١٤):

في الموضوع الأول حديث عن قوامي (قائمي) الليل، هناك رجال في أعصابهم مدخر من نشاط لا يستنفده شبح النهار الطويل، فهم يبقون مع أديار النهار وإقبال الليل قادرين على العمل، فماذا يعملون؟. يمتنون الليل بالغفلة؟ أم يجعلونه أحمر بالعصيان، إنهم يضيئون جوانبه بالعبادة والتهجد مقتدين بإمام العابدين. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ نِسَاءِ الْبَيْتِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وتلاحظ أن أول الآية ذكر لإيقاظ الخاشعين وطوى ذكر النيام الذين لا يرجون ولا يحذرون! كأنهم أتفه من أن يذكروا في هذه المفاضلة، وهم بداهة لا يحسبون من أولى الأبواب.

وفي الموضوع الثاني من سورة الزمر نرى معالم للشخصية الإنسانية التي تشد الأكمل والأجمل في كل ما يعرض عليها، إنها توازن بين المبادئ، والمذاهب، وتؤثر الأحسن باستمرار. من الناس من تراه صريع عقدة ثابتة في دمه، ومنهم من تراه سائب القيادة يجره تيار هنا وتيار هناك، أما أولو الأبواب في هذا الموضوع فهوهم الغالب مع الأشرف والأفضل.<sup>(١)</sup>

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

والموضع الأخير لكلمة «أولي الألباب» في سورة الزمر يتناول مصدرا من مصادر الإيمان الحق، وكيف يبني هذا الإيمان على التفكير الواعي؟

قال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿﴾ [الزمر: ٢١].

إن أولي الألباب هم الذين يعرفون الله، ويسبحون بحمده، أما الجهال وأنصاف العلماء ومرضى القلوب فهم الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

٩- وجاء ذكر «أولي الألباب» للمرة (الخامسة عشرة) في سورة غافر، ويبدو من السياق أنه يتناول الأقدمين من بني إسرائيل، ولا ريب أن اتباع موسى الأوائل كانوا أولي ألباب بالحق والنصرة والتكريم من فرعون وآله وجنده! ومن هنا أعطاهم الله الكثير.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَقْنَا بِتِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿﴾ [غافر: ٥٤-٥٣].

على أن صفة أولي الألباب يمكن أن تنسحب على الأتباع المتأخرين إذا كان رسوخهم في العلم حاملا لهم على تصديق محمد ﷺ واتباع رسالته، وذاك ما قررته آية أخرى.

﴿لَنْ كُنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴿﴾ [النساء: ١٦٢].

٩- أما آخر مكان في المصحف الشريف لأولى الألباب فهو سورة النساء الصغرى (الطلاق) قال تعالى في المرة (السادسة عشرة):

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿﴾ [الطلاق: ١٠-١١] وهكذا فإن الحوار مع النفس بالتأمل يجعل المرء من أولى الألباب، وعندئذ ينسحب عليه ما وصفه الله تعالى به أولى الألباب فيما تقدم.

## المبحث الثاني الحوار مع الآخر

### أولاً: المناظرة:

المناظرة حوار بين متناظرين بلوغاً إلى الحق أو جلاء للصواب، وهي بهذا لها من الناحية الشكلية أركان، وشروط، وضوابط، وآداب؛ كلها تؤدي بها إلى:

أن تكون مناظرة.

وأن تكون بلوغاً إلى الحق.

وأن تكون بالتي هي أحسن.

لا بد للمناظرة من موضوع. ولا بد لها من متناظرين، وهما ركنا المناظرة ولا بد لها من شروط تكمل هذه الأركان وتوضحها.

### أولاً: موضوع المناظرة:

إما متعلق بالعتيدة، مثل المسائل التي خاض فيها علماء الكلام، أو متعلق بأحكام فقهية، مثل المسائل التي خاض فيها علماء الأمة والسلف الصالح، وإما بموضوعات بين هذه وتلك.. مثل موضوعات الخلافة ونظام الحكم فهي - بالمعيار الدقيق - مسائل فقهية، لكن البعض تناولها مع مسائل العتيدة، إما باعتبار خطورتها، أو بما حدث عن انحراف في تصور الإمامة وفي وضعها بين مسائل علم الكلام، وقد لا يكون الأمر متعلقاً بأحكام العتيدة، ولا بأحكام فقهية، بل متعلقاً بمسائل فنية؛ مما سكت عنها التشريع كما عبر رسول الله ﷺ رحمة بنا غير نسيان.

والصنف الأول والصف الأخير من الموضوعات.. أكبر الظن أن ما يستعمل فيهما من قواعد موضوعية أو أدلة، هي القواعد أو الأدلة العقلية، أو كما يسميها الآخرون «الأدلة المنطقية».

وأما الموضوعات الفقهية، سواء كانت منصوِّصاً عليها، واحتاجت لإزالة بعض الشبهات عنها، أم كانت غير منصوِّص عليها واحتاجت للاجتهاد، فإن أكثر هذه الموضوعات تحكمها قواعد أصولية مستقاة من علم أصول الفقه، وهو أهم العلوم التي تفردها الشريعة الإسلامية وتفوق على الغرب الصليبي، مثل علم الجرح والتعديل.

أما الموضوعات فقد يجري فيها استخدام «الأدلة» أو القواعد الأصولية أو الفقهية، وقد يجري استخدام الأدلة أو القواعد العقلية.

أما المتناظران:

فهما طرفان يبغيان بلوغ الحق يسمى البادئ «عارض الموضوع» معللاً، والمتعرض سائلاً.

أو يسمى البادئ «عارض الموضوع» مانعاً، والمتعرض مستدلاً. وذلك تبعاً لموضوع المناظرة.

وقد يتغير الأمر أثناء المناظرة؛ فينقلب السائل معللاً، والمعلل سائلاً، أو المانع مستدلاً والمستدل مانعاً.

#### شروط المناظرة،

الشرط الأول: أن يكون المتناظران على علم بموضوع التناظر.

الشرط الثاني: أن يكون المتناظران على معرفة بما يحتاج إليه من قوانين المناظرة وقواعدها، حول الموضوع الذي يريدان المناظرة فيه.

الشرط الثالث: أن يكون الموضوع مما يجري التناظر فيه فالبدهيّات والمسلمات لا يجري التناظر فيها.<sup>(١)</sup>

الشرط الرابع: أن يجري المتناظران مناظرتهم على عرف واحد، فإذا كان الكلام على عرف الفقهاء؛ فلا يلجأ الطرف الثاني إلى عرف النحاة أو الفلاسفة ونحو ذلك.

(١) علي جريشة: أدب الحوار والمناظرة، مرجع سابق، ص ٦٥.

### ضوابط المناظرة:

هذه الضوابط تميز المناظرة عن الجدل المذموم أو السفسطة، فليس الأمر انتصاراً لرأي إعجاباً لكل ذي رأي برأيه، لكنه بحث عن الحقيقة، وبلوغ إلى الصواب، ومن هنا جاءت هذه الضوابط:

١- تخلي كل من الفريقين عن وجهة نظر مسبقة، وإعلانها الاستعداد لتقبل الحقيقة، وقد أُرشد إليها القرآن الكريم ﴿وَإِنَّا أَوْيَاتِكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

٢- الامتناع عن الإيذاء والسخرية، أو البذاءة، أو الفحش، قال تعالى ﴿لَا يَسَخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]... ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿... أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ «ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»<sup>(١)</sup>.

٣- افتراض صحة الجانب الآخر أو مجاراته وصولاً إلى تبكيته، أما افتراض صحة الجانب الآخر فإما بحثاً عن الحقيقة حتى يصل، أو مجاراة للطرف الآخر إن كان معانداً حتى نوصله للحقيقة. ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

أو مجاراته وصولاً إلى تبكيته وإلزامه ﴿إِن نُّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ١١].

٤- التزام الأدلة الأصولية أو العقلية، وتقديمها مؤيدة بالقرآن أو الحديث، وألا يقدم دليلاً ترديداً لأصل الدعوى، وألا يطعن إلا على الأسس التي يجري عليها التناظر، وألا يكون في بعض كلامه ما ينقض الآخر.

٥- التسليم بالمسلمات وقبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٠٠).

### آداب المناظرة،

هذه الآداب مستمدة من أن المناظرة غير المراء أو المجادلة «المذمومة» فهي بلوغ الحق، أو كشف الصواب.

وهي من ناحية أخرى تلتزم ما أمر الله به «أن تكون بالتي هي أحسن، وتبتعد عما يتعارض مع الغاية النبيلة والوسيلة الكريمة.

ويمكن أن نجمل ما قاله العلماء في آداب المناظرة:

١- الترتيب: بمعنى أنه لا يحسن الاستعجال في البحث قبل تمام المفهم، فإن في ذلك فائدة للمعلل والسائل على السواء.

أما المعلل: فقد يغير الدليل، أو يزيد عليه بما يدفع الاعتراض، أو يحذف فيه ما يوجب الخلل، أو يدلل على مقدمة نظرية، أو ينبه على مقدمة خفية، فيسلم من مناقشة الخصم.

وأما السؤال، فربما يخطئ بالاستعمال فيظهر جهله، وقد يذكر المعلل بعد إقامة دليله ما يظهر به ما خفي على السائل فيكفيه مؤنة البحث، وقد يؤدي استعجال البحث إلى فساد.

٢- ألا يهاب وألا يحقر: بمعنى ألا يقع فريسة الخوف أو فريسة العجب، فكلاهما يؤثر على كفاءته وقد قيل في ذلك: ألا يناظر من هو أعلى منه مقامًا؛ لأنه يؤدي إلى التساهل، والتسليم له بما يقول خشية منه.

والعبرة في هذا بالأثر النفسي، فقد لا يترك الأعلى مقامًا أثرًا في نفس المناظر فلا يهابه، ومن ثم لا يؤثر على قدرته على المناظرة.

٣- ألا يختصر، وألا يطيل، وألا يخرج عن المطلوب: فالاختصار يخل بالمفهوم ولا يوصف المطلوب والإطالة تمل السامع فينقطع عن الوصول إلى المطلوب، والخروج عن موضوع المناظرة يؤدي إلى الانتشار المفوت للمطلوب.

٤- أن يتجنب في ألفاظه الغريب والمحتمل من غير قرينة، وكلام السفهاء؛ لأن الغريب يكون غير موصل، والمحتمل من غير قرينة، كذلك، وكلام السفهاء من وظائف الجهال يسترون بها جهلهم.

وأن يكلم كل مقام بما هو وظيفته، ففي علم الكلام يتكلم باليقين المفيد للاعتقاد، وفي الفقه بالأمارات المفيدة للظن.

٥- الجلوس: جلسة المكثرت، مقابلًا للمناظرة، مقبلاً عليه، متجنبًا أوقات عدم الاعتدال [الجوع، الامتلاء، الغضب، المدافعة] ومتجنبًا الضحك، والصوت العالي، وما يزيل الهيبة<sup>(١)</sup>.

### شروط المناظرة وآدابها:

#### ١- البدء من نقطة التقاء:

فليس النقص والهدم سبيلًا إلى النفوس: إنه لون من الصد عن سبيل الله لا ينبغي أن يقع فيه المسلم المحاور، وكل إنسان، ولو كان غير مسلم، لا يعدم نقطة خير في قلبه يبدأ بها المسلم فيدخل إليها، أو يدخل منها، ثم ينميها ويسير بها إلى هدفه الذي يريد.

■ ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالنَّهْنُ وَالنَّهْمُ وَجِدْ وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

■ ﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

■ ﴿ وَفَعَلتَ فَعَلتَكَ الَّتِي فَعَلتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴾ (١٧) قَالَ فَعَلتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصّٰلِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩-٢٢].

(١) أحمد مكي: علم آداب البحث والمناظرة، ص ٢٧.

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَءَ آزَابًا مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَءَ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا...﴾ [يوسف: ٤١].

٢- البدء بإثارة العاطفة وتوجيه الاهتمام:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ

إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي

لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِّن

رَبِّي وَءَانِنِّي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٥٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لِيَأْنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَعُونَ رَبِّهِمْ

وَلَا يَكْفِي - أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَعَلُوا لِكُلِّ شَيْءٍ سَمْعًا وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

﴿٥٩﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَرَدُّونَ أَصْحَابُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ

﴿٦٠﴾ قَالُوا يَنْبَغُ قَدْ جَعَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ [هود: ٢٥-٣٢].

٣- التذكير بأنعم الله واللفت لآيات الله في الأنفس والآفاق:

﴿أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ

جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ

سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

■ ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٨٦).

■ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء ١٣٢-١٣٥].

■ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

■ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَابٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

٤- البدء «بصدمة» تفيق:

وأغلب الظن أنها بالنسبة لمن ران على قلوبهم «فاتحاجوا إلى ما يزيل هذا الران أو طمست عقولهم فاتحاجوا إلى ما يفيقهم»<sup>(١)</sup>.

■ ﴿وَالِإِي عَادِ آحَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَنْقُومِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ أَفَلَا تَنْقُرُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

(١) علي جريشة: مرجع سابق، ٨٤.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصِبْتُ أَنْتُمْ لِوَيْبِ فِي سَمَاءِ سَمِيْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١].

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٠-٥٢].

وقد قيل في قوله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]. إن الدعوة بالحكمة تعني تغيير الأسلوب حسب المقام فمن أصلحته الكلمة الطيبة فلا يصار إلى غيرها، ومن أصلحته الكلمة الخشنة فهي الحكمة في هذا الموضوع.

﴿ وَمِنْهَا ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢١-٢٢].

﴿ وَمِنْهَا: ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿ بل إن الصدمة أحياناً تلزم المؤمنين: ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

٥- الدعوة إلى إعمال النظر في رفق وأدب:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تُلْفِكُمْرُوا ﴾ [سبأ:

[٤٦]. أي أدعوكم إلى واحدة.. قيل خصلة واحدة.

أو كلمة واحدة.. هي لا إله إلا الله... أو هي القرآن «باعتبار الكلمة جنسًا».  
 أن تقوموا.. أي للحق.. ﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَقْصَىٰ﴾ [النساء: ١٣٥].  
 لله مثني وفرادى.. أي مجتمعين ومنفردين.. أو متشاورين أو من غير تشاور.. أو المثني  
 عمل النهار والفرادى عمل الليل.

ثم تفكروا: دعوة إلى التفكير... إن وقفنا عليها.. مطلق التفكير في النفس والآفاق..  
 مما يفضي إلى التوحيد وهو منهج قويم في الحوار.

أن تترك خصمك يصل إلى الحق الذي تريد مما يظن معه أنه هو الذي اكتشفه فيكون  
 أكثر إقبالا وأكثر استمساكًا.

ومنه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ  
 فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا  
 رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦].

فقد سألهم عن من يرزق.

ثم أجابهم أنه الله.

ثم جعل تقريراً فيه احتمالان: إما أن يكونوا على هدى أو في ضلال أي أحد الغريمين  
 على هدى والآخر على ضلال، وهو يدعو إلى التفكير.

ثم جعل خياراً آخر.

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

ولئن كان الإجماع بمعنى الكسب..

فلقد كان في استعماله في جانب المؤمنين، وجعل العمل في جانب الكافرين.. إما لونا  
 من المساواة حيث لا تجب فيه مجاملة للفريق الآخر، أو لونا من التأليف يجعل الفعل  
 الأقرب إلى الخطأ في جانبهم كما تقول تواضعا: قد أكون مخطئاً.

هذا لون من أدب الحوار جميل.

وهو موضوع، يرد المخطئ إلى الصواب.

ويرد المبطل إلى الحق.. وفي النهاية.. يترك الأمر للتفكير..

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبِّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا ﴾ يحكم بيننا ﴿ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ ﴾ وفي حوار إبراهيم مع الكافرين الذين يعبدون الأصنام:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظَمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿ [الشعراء: ٧٠-٧٣].

... فيها إيقاظ لضائرهم وعقولهم ودعوة إلى أعمال النظر، فلما لم يفلح لجأ إلى وسيلة عملية لإفحامهم، وذلك بأن كسر أصنامهم، وجعل الفأس على رأس كبيرهم، كما تحدثت سورة الأنبياء، وسيأتي تفصيلها بعد قليل.

٦- الاستفهام التقريري:

وهو الذي يعتمد على مقدمات بينة:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ (البلد: ٨).

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [يس: ٨١].

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

ومنها بقية قصة إبراهيم مع قومه لما لم يصل معهم إلى نتيجة بالحوار الهادئ- كما تقدم- لجأ إلى حل عملي ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿ [الأنبياء ٥٨-٦١].

وهنا كان الإفحام:

﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿ [الأنبياء: ٦٢-٦٣].

فكانت النتيجة:

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥].

ثم كان التقرير: ﴿ قَالَ أَفَعَبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

فلجأوا إلى غير المحاورة إلى أسلوب الغاشمين الضالين:

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُم إِن كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فتدخلت إرادة رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

### ثانياً، الحوار مع أهل الكتاب:

احتوى القرآن الكريم على أفضل الأساليب، وأحكم المناهج وأقوى الحجج في حوارهم مع أهل الكتاب وغيرهم، وقد نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ بالحجج البينة والبراهين القاطعة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]. (وقد وفي سبحانه وتعالى بما وعد، وأظهر دينه على رغم من كفر وجحد، فأظهره بالحجة والبيان، ونصره بالسيف والسنان، وأيد أهله على من سواهم، ونصرهم بالحجة على من ناوأهم، كما أظهرهم بالسيف على من كانوا له يحاربون، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصف: ١٧٣] وأيد رسوله وأتباعه بالحجج الصحيحة العلمية، والبراهين القاطعة العقلية والنقلية، بما لم يبق بعده للمخالف إلا محض العناد، وكفى لمن جانب الاعتساف وسلك طريق العدل والإنصاف ما تضمنه القرآن العربي المبين من البينات والحجج والبراهين، فهو الشفاء النافع لمن استشفى، والكفاية التامة لمن به استكفى، وهو الهدى والنور وشفاء وسوسة الصدور، وهو الكفيل بالانتصار على المبطلين لمن كان به خبيراً كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

تَقْيِيرًا ﴿﴾ [الفرقان: ٣٣]، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما يبطلها ويلقيها من شاق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وفي الحديث الذي رواه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن النبي ﷺ في صفة القرآن: (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تشعب منه العلماء، ولا يخلق من كثير الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ.﴾ [الجن ١-٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) (١).

فكتاب الله تعالى، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ولأن القرآن كلام الله الحكيم أعلى وأعز من أن يرد إلى منهج بشري قاصر محدود، ونحن سنحاول استنباط منهج القرآن في الحوار مع أهل الكلام، ويدخل في ذلك كافة سبل الإقناع والتأثير بما في ذلك القصص القرآني والوعظ والتهديد.

(وإذا صح لنا أن نقول إن في القرآن شيئاً من المنطق فإنما هو منطق العقل والضمير، منطق الحجة والبرهان... منطق البلاغة والبيان، وليس منطق أرسطو القائم على القياس ذى المقدمتين والنتيجة) (٢) والصورة التي تشكلت بها حجج القرآن وبراهينه وجدله هي صورة الفصاحة والبلاغة والإعجاز البياني وهي صورة لا تأتي بحال من الأحوال إذا اتبع في حججه وبراهينه وجدله منطق اليونان وطرق الجدال عندهم من ترتيب المقدمات والنتائج والأشكال والقياسات على هيئة خاصة وأسوار خاصة ونظم خاصة، فإنه يفقد بذلك ميزة الإعجاز والتحدي؛ لأن هذه النظم والقوانين أشبه بالصنعة التي تتعلم مرسومة لا محيد عنها يستوي فيها الجميع عند ممارستها، وقد لا يرقى إلى تعلمها وفهمها إلا القليلون، وقد يجز

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: فضائل القرآن، باب: ماجاء في فضل القرآن، رقم (٢٨٣١).

(٢) الأملعي: مناهج الجدال في القرآن الكريم، ص ٨٩-٩٠.

الاسترسال فيها إلى سرعه هدمها ونقضها بأقل تشكيك في سلامة بناتها، فتستحيل إلى جدل عقيم، ومناقشات بيزنطية ضررها أكبر من نفعها<sup>(١)</sup>.

لذا قال أحد كبار الفلاسفة المتكلمين وهو أبو عبد الله الرازي: (لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى غليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن الكريم)<sup>(٢)</sup> وسيكون التركيز على منهج القرآن في محاورة أهل الكتاب؛ مع ذكر أمثلة لما ورد عن النبي ﷺ والسلف الصالح.

وهذا عرض لأسلوب القرآن الكريم في محاورة أهل الكتاب:

أولاً: الاستفهام الاستنكاري:<sup>(٣)</sup>

وقد ورد هذا كثيراً في القرآن الكريم في سياق محاورة أهل الكتاب وهو أن ينكر عليهم أفعالهم المنكرة عن طريق الاستفهام، فلا يملكون جواباً لما تحويه هذه الأفعال من فساد، يعرف بداهة بالفطرة، ولما تحويه من تناقض ومخالفة لما في كتبهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٨]. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨-٩٩]. وقوله تعالى مخاطباً لهم بخطاب الغائب ليكون أبلغ في التأثير: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦]. فإذا سمع الكتابي هذه الاستفهامات فإنه يحار ولا يجد عليها جواباً، فإن كان في قلبه أدنى ذرة من خير فإنه يؤمن ويترك ما كان عليه من الكفر والصد عن سبيل الله وكتم الحق، وإن كان غير ذلك فإنه تقوم عليه الحجة ويقع في غاية الحرج؛ وذلك لأن الكتابي يقر بوجود هذه الأمور منه فإنه يكفر بآيات الله ويلبس الحق بالباطل ومع كتمان الحق وصددهم

(١) الألمعي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٩٠.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/٥.

(٣) خالد بن عبد الله القاسم: الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه، الرياض، دار المسلم، ١٤١٤هـ، ص ١٨٥.

عن سبيل الله مع فساد التوجه ﴿تَبَعُونَهَا عَوْجًا﴾ [آل عمران: ٩٩]. ولا يستطيعون إنكار ذلك كما لا يستطيعون إنكار علمهم بصفة النبي ﷺ في كتبهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقد تواترت الروايات عن أهل الكتاب في زمن النبي ﷺ تتضمن اعترافهم بصدقه ومعرفتهم أنه هو المبشر به في كتبهم، ولا أدل من أنهم كانوا ينتظرونه فلما بعث وكفر به من كفر منهم زال انتظارهم.

ومن تلك الروايات الدالة على ذلك ما يلي:

١- قصة بحيرى الراهب الذي رأى النبي ﷺ - في رحلته الأولى للشام وكان صبيًا -

ورأى خاتم النبوة في ظهره فسأل أبا طالب، ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو ابنك وما ينبغي أن يكون أبوه حيًا، ثم أوصاه به وحذره من اليهود<sup>(١)</sup>.

٢- لما خاف النبي ﷺ على نفسه لما جاءه الوحي وأخبره ورقة بن نوفل - وكان قد

تنصر وتعلم النصرانية - قال له (والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى)<sup>(٢)</sup>.

٣- قدم إلى النبي ﷺ بمكة عشرون رجلًا من نصارى الحبشة، فوجدوه في المسجد،

فجلسوا إليه وكلموه، فدعاهم النبي ﷺ إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره<sup>(٣)</sup>.

٤- قصة سلمان الفارسي وقد عاصر خمسة أساقفة في بلاد متفرقة، يوصي كل واحد

منهم سلمان عند موته إلى الآخر حتى بلغ آخرهم فقال له سلمان: بم تأمرني؟ قال:

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ١٦٥ - ١٦٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١ / ٢٢٢ وأصلها في البخاري ٣/١ بلفظ «هذا الناموس الذي نزل الله على

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ»

(٣) المرجع السابق، (٢/ ٢٨ - ٢٩).

ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. وبين كتفيه خاتم النبوة. ومعلوم أن سلمان قصد أرض العرب فاسترق فبيع إلى يهود المدينة فلما هاجر النبي ﷺ وعلم مطابقة الأوصاف له أسلم<sup>(١)</sup>.

٥- خبر عبد الله بن سلام عندما أسلم ونصح اليهود بقوله: (يا معشر يهود اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ وأؤمن به وأصدقه وأعرفه)<sup>(٢)</sup>.

٦- خبر مخيريق وكان يهودياً وكان يعرف النبي ﷺ فلما جاء يوم أحد - وكان يوم السبت - قال: (يا معشر اليهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق) قالوا إن اليوم يوم السبت. قال (لا سبت لكم) ثم أخذ سلاحه وقتل بأحد فقال النبي ﷺ (مخيريق خير يهود)<sup>(٣)</sup>.

٧- عندما حاصر النبي ﷺ بني قريظة قال كعب بن أسد: يا معشر يهود وقد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً فخذوا أيها شتمتم. قالوا: وما هي: قال: نتابع هذا الرجل فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم فرفضوا، فعرض عليهم قتل آبائهم ونسائهم ثم يقاتلوا فرفضوا، فعرض عليهم القتال يوم السبت فرفضوا، فرفضوا حكم سعد بن معاذ فقتل مقاتليهم وسبى نسائهم وذراريهم<sup>(٤)</sup>.

والروايات كثيرة، وهي تؤكد علمهم برسول الله ﷺ واعترافهم بذلك فيما بينهم مما لا يستطيعون إنكاره عند مخاطبة الرب عزَّجَلَّ لهم بتلك الاستهفامات الاستنكارية التي

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (١/١٩٨-٢٠٢).

(٢) المرجع السابق، (١١٨/٢).

(٣) المرجع السابق، (١١٩/٢).

(٤) المرجع السابق، (١٤٢/٣).

تبلغ مداها في التأثير وإقامة الحجة، وقد وردت تلك الاستفهامات في معانٍ أخرى في حوار أهل الكتاب.

ثانياً: القصص القرآني:

(قد يساق الدليل في قصة ويأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها فتصغى إليه الأذان، وتميل إليه النفوس وترتاح إليه الأفتدة، وتتأثر بما فيه من عظات وعبر، وقد اتخذ القرآن الكريم من القصص سبيلاً للإقناع والتأثير)<sup>(١)</sup>. فنجد أن القرآن في محاوره أهل الكتاب وغيرهم يورد القصص والتي فيها من إقامة الحجة والتأثير الشيء الكثير.

وأكثر القصص التي تردت في القرآن قصص الأنبياء، وسنكتفي بمثال واحد وهو قصة إبراهيم عليه السلام. فقد وردت قصة إبراهيم عليه السلام في مواضع عديدة منها ما ورد في سورة البقرة ضمن محاوره أهل الكتاب، وقد وردت بعد قوله تعالى ﴿يَبْنَئِ أَسْرَىٰ يَلِٰذِكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٢٢] وورد بعدها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]. والآيات طويلة تتبدئ بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقد ذكر الفخر الرازي سبب ذكر قصة إبراهيم وفائدتها في محاوره أهل الكتاب وغيرهم بقوله: (والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمة وخادمي بيته، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضاً مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفي بها وخرج عن عهدها لا جرم نال النبوة والإمامة، وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.

(١) الألمعي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٧٣.

الثاني: أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدوا أن هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل.

الثالث: أن الحج من خصائص دين محمد ﷺ فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

الرابع: أن القبلة لما حولت إلى الكعبة المشرفة شق ذلك على اليهود والنصارى فبين الله تعالى أن هذا البيت قبله إبراهيم الذي يعترفون بفضلهم ووجوب الاقتداء به، فكان ذلك مما يوجب زوال ذلك الغضب عن قلوبهم<sup>(١)</sup>.

ومنها أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا بخروج النبي ﷺ ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] ثم قال بعدها ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فلا حجة لهم بترك متابعتة.

ومنها بيان الله أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يتشرفون بالنسبة إليه كان على الإسلام والتوحيد كما كانت وصيته لأبنائه ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

يقول سيد قطب بعد هذه القصة: (في ظل البيان التاريخي الحاسم لقصة العهد مع إبراهيم وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين، ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين، يناقش إدعاءات أهل الكتاب المعاصرين، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم فيبدو هذا كله ضعيفا شاحبا كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل. كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلا المتعنتون)<sup>(٢)</sup>.

وهكذا فإن القصة في القرآن لها دورها البالغ في محاوراة أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦-٧٧] وقال تعالى مبينا فوائد القصص القرآني في نهاية قصة يوسف

(١) الرازي: التفسير الكبير، (٢٣/٤).

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، (١١٧-١).

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ثالثاً: الوعظ والتذكير:

إن أهل الكتاب لا تنقصهم الحقائق كما لا يخفى عليهم الهدى، وإنما ينقصهم الإيمان؛ لذا نجد القرآن الكريم يعظهم ويذكرهم ليردهم إلى الحق، ولكي لا يبقى لديهم حجة أو عذر.

فتارة يذكرهم بنعم الله عليهم والتي من الواجب أن تقابل بالشكر والإيمان لا بالكفر والجحود، فيسرد النعم التي أنعم الله على بني إسرائيل - في آيات كثيرة يطول سردها - ابتداء بتفضيلهم على العالمين ومروراً بإنجائهم من آل فرعون وإغراق آل فرعون وعفو الله عنهم بعد اتخاذهم العجل، وإحيائهم بعد موتهم، وتظليل الله عليهم الغمام وإنزال المن والسلوى، وتفجير الأرض اثنتا عشرة عينا.. إلى آخر تلك النعم<sup>(١)</sup>.

وسنذكر مثالا على ذلك وهو قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴿٤١﴾ وَعَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْتُقُونَ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

وتارة أخرى يذكرهم بعاقبة الكفر والعصيان بضرب أمثلة لمن عصى أو كفر منهم، وكيف كانت عاقبته؟ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَآبَيْنَ بِدِيهَا وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

ومثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آؤُوا الْكُذِبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ؕ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] وكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩] ويقول تعالى عن بعض بني إسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ

(١) خالد بن عبد الله القاسم: مرجع سابق، ص-١٩٢.

وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ  
الَّذِينَ بَعَثْنَا بِالْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ [البقرة: ٦١].

وتارة يذكرهم بيوم القيامة وبشدة عذاب الله للعصاة، ليكون ذلك رادعاً لهم عن  
عصيانهم وكفرهم بمحمد ﷺ.

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا  
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨]، ويقول تعالى ﴿ سَلِّبَنِي  
إِسْرَاءَ بِلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَمٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾  
[البقرة: ٢١١].

ويقول تعالى في سياق محاوراة أهل الكتاب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ  
الَّذِينَ بَعَثْنَا بِالْحَقِّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ  
نَاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢]، ويقول تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ  
الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَاءَ بِلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ  
فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ  
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ مِمَّا  
فَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقد نزلت هذه الآية في اليهود المعاصرين للنبي ﷺ، قال ابن عباس: " نزلت هذه الآية  
في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب  
وأبي ياسر بن أخطب، كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد ﷺ خافوا  
انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد ﷺ وأمر شرايعه<sup>(١)</sup>.

وقد كان النبي ﷺ يحاور أهل الكتاب بهذه الآيات وأمثالها، كما كان السلف الصالح يستخدمون هذا الأسلوب في محاوراة أهل الكتاب، ومن ذلك تذكير الباجي لأحد الرهبان بقوله: (وأمر الدنيا وشأنها أنفر وأحط من أن يغتر بها ذو عقل أو يسكن إلى غرورها ذو لب).<sup>(١)</sup>

### رابعاً: التحدي والمباهلة:

إذا ظهر الحق واستبان فإن التحدي والمباهلة من الأساليب النافعة في إظهار الحق وإبطال الباطل.

أما التحدي فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَوَدَّهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة ٢٣-٢٤] هذه الآية المدنية خطاب لأهل الأرض، ويدخل فيها أهل الكتاب، وقال ابن القيم في بيان دلالتها: (إن حصل لكم ريب في القرآن، وصدق من جاء به، وقتلتم إنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشببه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: اجهد على بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعاونك وأولياك ولا تبق منهم أحداً حتى تستعين به.

فهذا لا يقوم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلاً إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم، ويقول لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أيدياً فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، وهم في حالة لا يقدرون على معارضته)<sup>(٢)</sup>.

(١) الباجي: رسالة راهب فرنسا، ص ٦٩.

(٢) ابن القيم: بدائع الفوائد (٤/١٣٤-١٣٥).

أما المباهلة فهي نوع من التحدي، وقد أمر الله بها في القرآن وبين صفتها فقال تعالى في سياق حوار أهل الكتاب في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران ٦١-٦٣] وقد ورد هذا الأمر الإلهي في الآيات التي نزلت في نصارى نجران لما أتوا النبي ﷺ، وقد روي ابن إسحاق أنه لما أراد النبي ﷺ ملاعنة ومباهلة النصارى قالوا له: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيها دعوتنا إليه. فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟

فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم<sup>(١)</sup>. ثم قال لهم: « فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم فتركوا الملاعنة وقالوا للنبي ﷺ: قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك لدينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنك عندنا رضا. فبعث معهم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>. وهذه القصة من دلائل نبوته ﷺ قال الرازي: دلت هذه الموافقة على صحة نبوة محمد ﷺ من وجهين:

أحدهما: وهو أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ خوفهم بنزول العذاب عليهم، ولو لم يكن واثقاً بذلك كان ذلك منه سعيًا في إظهار كذب نفسه، لأنه بتقرير أن يرغبوا في مباحلته ثم لا ينزل العذاب فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر، ومعلوم أن محمداً ﷺ كان من أعدل الناس فلا يليق أن يعدل عملاً يفضي إلى ظهور كذبه، فلما أصر على ذلك علمنا إنما أصر عليه لكونه واثقاً بنزول العذاب عليهم.

وثانيهما: أن القوم لما تركوا المباهلة فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته وإنما أحجموا عن مباحلته، بل ودفعوا إليه المال الوفير، وصرحوا بتصديقه<sup>(٣)</sup>.

(١) المقصود به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (١٦٦/٢).

(٣) الرازي: التفسير الكبير، (٨٢/٨).

وهذه المباهلة قد أمر الله بها ودعا إليها النبي ﷺ، ودعا إليها أصحابه، وهي سنة إلى يوم الدين، ليست خاصة برسول الله ﷺ.

قال ابن القيم في فوائد قصة نصارى نجران: (إن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد، أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن انكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي وسفيان الثوري في مسألة رفع اليدين)<sup>(١)</sup>.

خامساً: الاستدلال باستحالة ما يدعونه عقلاً:

يناقش القرآن الكريم أهل الكتاب فيما يدعونه مناقشة عقلية، ويثبت لهم أن بعض ما يدعونه محال عقلاً، أو يلزم منه أمر لم يقع<sup>(٢)</sup>. فمن ذلك نسبتهم الولد لله، فبين الله عَزَّجَلَّ امتناع ذلك عقلاً كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿البقرة: ١١٦-١١٧﴾. ولم يزد الرب عَزَّجَلَّ عن تسييح نفسه، وإخبارهم بأنه مبدع السماوات والأرض، مع كمال قدرته المنافية لاتخاذهم الولد لله وهذا مما علم بالفطرة.

كما أن الإله مستغن عن غيره ضرورة، والمسيح لم يكن كذلك كما قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَيُّ يُؤْفَكُونَ ﴿المائدة: ٧٥﴾.

كما أن نسبة الابن لله يلزم منه أمر لم يقع فيعلم بطلانه عقلاً كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿المؤمنون: ٩١﴾. (والمعنى ليس مع الله من إله ولو سلم أن

(١) ابن القيم: زاد المعاد (٣/٦٢٤).

(٢) خالد بن عبد الله القاسم: الحوار مع أهل الكتاب، ص ١٩٦.

معها سبحانه إلهًا للزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلو أحدهما على الآخر، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض إلهين فأكثر محال لما يلزم منه من المحال<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك قول النصارى: الله ثالث ثلاثة، المخالف للفظرة البشرية والذي يحيله العقل لذا لم يزد الرب عزَّجَلَّ عن إنكار قولهم من بيان أن التوحيد هو الأصل، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

ومن ذلك وصف اليهود الرب بصفات النقص، وهذا مما يحيله العقل فطرة فلا يحتاج إلى الإنكار، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَكَتْنَا مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعِيرٍ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ وَلُغْوًا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن ذلك عبادتهم للملائكة والنبیین: وزعم النصارى أن عيسى دعا إلى نفسه، فبين الله استحالة ذلك كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وهكذا يهدم القرآن دعاوى أهل الكتاب بنظرة عقلية تجعل لمن له أدنى عقل أن يتراجع عن قوله الذي يحيله العقل والفطرة.

وقد استخدم هذا الأسلوب كثير من المحاورين المسلمين، ومنهم على سبيل المثال:

ابن حزم الأندلسي: وقد ساق أقوال من قال: إن الفاعل أكثر من واحد، وساق أقوال

(١) الألعى: مناهج الجدل، ص ٧٥-٧٦.

النصارى بفرقهم المختلفة والتي فيها من الشرك بأنواعه، ثم قال: (ولولا أن الله وصف قوهم في كتابه إذ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] إذ يقول تعالى حاكياً عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِثٌ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وإذ يقول تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وأبو الوليد الباجي في بيانه: أن عيسى ليس إلهاً يقول لأحد الرهبان: (بل هو بشر مخلوق لا يعدو عن دلائل الحدوث من الحركة والسكون، والزوال والانتقال، والتغير من حال إلى حال، وأكل الطعام، والموت الذي كتب على جميع الأنام؛ مما لا يصح على إله قديم)<sup>(١)</sup>.

وابن تيمية يقول منكراً على النصارى التثليث: (وهم يدعون أن التثليث والحلول والاتحاد إنما صاروا إليه من جهة الشرع وهو نصوص الأنبياء والكتب المنزلة لا من جهة العقل، وزعموا أن الكتب الإلهية نطقت بذلك، ثم تكلفوا لما ظنوه مدلول الكتب طريقاً عقلياً فسروه بها تفسيراً ظنوه جائزاً في العقل، ولهذا نجد النصارى لا يدجأون في التثليث والاتحاد إلى الشرع والكتب، وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث والاتحاد والحلول، فإن فطرة الله التي فطر الناس عليها وما جعله الله في قلوب الناس من المعارف العقلية - التي قد يسمونها ناموساً عقلياً طبيعياً يدفع ذلك، وينفيه، وينفر عنه)<sup>(٢)</sup>.

وهذا أحدهم هداه الله إلى للإسلام يحاجهم فيذكر بعض عبارات التوراه المستحيلة عقلاً مثل: «وندم الله على خلق البشر» و«انتبه لربنا يا رب! استيقظ من رقدتك» و«والله ندم على تملكه شؤون على إسرائيل، ثم يقول: (فهذه التوراة التي بأيديهم على الحقيقة كتاب - عزيز - وليس كتاب الله)<sup>(٣)</sup>».

سادساً: إظهار سوابقهم مع رسلهم:

كان أهل الكتاب يرفضون رسالة محمد ﷺ، وخشية أن يؤثر موقفهم هذا على البعض

(١) الباجي: رسالة راهب فرنسا، ص ٦٥.

(٢) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٢/٢٠.

(٣) السموال بن يحيى: إفحام اليهود ١٣٣-١٤٠، تحقيق د. محمد عبد الله الشراوي؛ طبع ونشر الرئاسة العامة

لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٧هـ، ص ص ١٣٣-١٤٠

بوصفهم أهل كتاب سابق يطيل القرآن في بيان مخالفتهم لرسولهم وتعنتهم وعنادهم، وذلك ليظهر للرأي العام أن هؤلاء الرافضين لرسالة محمد ﷺ كانوا كذلك مع من سبقه من الرسل، فلا يضر رفضهم، ولا يدل على صحة ما عندهم، يقول الشيخ السعودي تحت عنوان طريقة القرآن في المجادلة مع أهل الأديان الباطلة: (يقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسولهم ما لا يستغرب معه لمخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدقاً لما سبق من الرسالات التي مقصدها جميعاً واحداً)<sup>(١)</sup>.

والآيات التي يحاور القرآن فيها أهل الكتاب مبيّنة فيها هذا الجانب عديدة جداً منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٣-٦٥].

وبعد هذه الآيات وأمثالها في سورة البقرة يقول تعالى: ﴿أَفَنظْمُعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

ويقول تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: ١٥٣] كما يسلي الله نبيه محمداً ﷺ بأن تكذيبهم لدعوته لا يضر الدعوة شيئاً، فإن جميع الرسل كذبوا كما قال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبُوبِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤].

سابعاً: إثبات أن دعواهم خالية من الحجّة والبرهان، وتحتاج إلى تصحيح:

وذلك أن كثيراً من دعوى أهل الكتاب تنقصها الحجّة والبرهان، فيطالبهم الله عزّ وجلّ

(١) عبد الرحمن السعودي: القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص ٤٣.

ببرهان دعواهم، وهم لا يملكون على ما يدعون حجة ولا برهاناً وإنما أمانى وتخرف؛ فسقط دعواهم من غير رد لها ومن ذلك دعواهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

ومثل ما حكاها الله عنهم: ﴿ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا قُلْ أَسْمَأُكُلْتُكُمْ أَمْ عَلَّمَ اللَّهُ الْقُرْآنَ بَلَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ثامناً: الاستدلال بنصوص كتبهم وبما يسلمون به:

ومن مسالك الاستدلال على أهل الكتاب، الاحتجاج عليهم بما يسلمون به من حقائق ذكرت في كتبهم.

وقد احتج القرآن الكريم على أهل الكتاب بذلك فرغهم بالإيمان بمحمد ﷺ وأخبر عن وجود ذلك في كتبهم كما قال تعالى مادحاً من آمن منهم: ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَأَسْأَلُكُمُهَا لَلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَا مَرْهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

كما احتج عليهم بذلك في بعض المسائل الفرعية، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

تاسعاً: الاستدلال بلازم كلامهم:

وذلك أن كثيراً من ادعاءات أهل الكتاب يلزم منها أمور لا يقرونها، وقد حاجهم الله بذلك حيث كانوا يدعون أنهم مسلمون، وأنهم متبعون لملة إبراهيم؛ فأخبر الله أن الحج من شعائر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم معرضون عنه كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ

كَانَ جَلًّا لِيَتَىٰ إِسْرَاءَ بِلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَاءَهُ بِلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ۚ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ۖ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

ولما نزلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] قالت اليهود: فنحن مسلمون. فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فقال لهم النبي ﷺ: «إن الله فرض على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» فقالوا: لري يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. لذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] (١).

وذكر الرازي أن في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، استدلال بلازم كلامهم حيث يقول في عرض شبه أهل الكتاب: الشبهة الأولى: حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]، ولم يذكروا في تقرير ذلك شبهة، بل أصروا على التقليد، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة.

وأثبت أحمد ديدات التحريف في مناظراته العديدة وكتبه المختلفة، وسلك هذا المسلك في الاحتجاج على أهل الكتاب، ومن ذلك مناظرته المشهورة مع سوجارت أن ليس بينهما اثنان متماثلان، وعلماؤك يقولون بأنه بين الأربع والعشرين ألفاً التي كتبوها، لا توجد اثنان متشابهان، إذن فكيف لك أن تحكم بأن هذه من عند الله، وأن الأخرى ليست من عند الله من بين أربع وعشرين ألف نسخة؟! (٢).

وبعد أن تعرفنا إلى كيفية الحوار في الذات، ومع الآخرين؛ فإننا في حاجة إلى رصد جانب آخر من الحوار مع الآخرين فيما يسمى بالحوار الحضاري، أو حوار الحضارات مما سنعرض له في الفصل السادس.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/٢٨٦) بتصرف.

(٢) أحمد حجازي لسقا: المناظرة الحديثة في علم الأديان بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت، تقديم الشيخ

غزالي - مؤسسة زهران، القاهرة (د.ت)، ص ١٥١.